ولن تجد رساماً للحياة الاجتماعية أدق من هذا الشاعر حين رأى فى بلده المضحكات من أمور عجيبة ، تجدّ الدنيا ويلهو الشعب ، فهو يفر من الصالحات ، وصحفه تطنّ طنين الذباب فى مقالاتها السخيفة . وقد انقسم الناسُ فبعضٌ قد تمسك بالأمير ، وبعض قد لجأ إلى الأجنبى ، وبعض يصيح بغير قصد أو مأرب . وهذه علةٌ من العلل فى حياة الشرق منذ زمن قريب . هجاها الشاعر لعلّ قومه ينصرفون عن المجازى ويتعلقون بالعلا . ولعله لو عاش اليوم لانصرف إلى لون آخر من الشعر ، وقد أجاب المصريون نداء المجد وأصاخوا لصيحة الخلود .

هذا فى مصر ، وأما فى سورية فقد هجاها هاج فوصف حياتها خلال الانتداب فقال :

باع الأديب كتاب «الصرف» من طفر ... وعضه الظالمان البرد والسغب
ولا ترى شارياً فى السوق قاطبة ... إلا المـآمير بالمال الذى نهبوا

ذلك آن العالم أفلس فباع كل شىء ، وغلبه البرد والجوع وأصبح الموظفون وحدهم ينعمون بالمال الذى نهبوا . ثم وصف الحكومة والبرلمان آنذاك فقال :

قالوا حكومتنا شورى فقلت لهمْ ... أنعمْ وأكرم فهذا القصدُ والأربُ
فى البرلمان رجالٌ ليس ينقصهمْ ... عن البهائم إلا السرّجُ والذنبُ
فللمساكين ما جادوا بخردلة ... إلا وكانت من الشىء الذى نهبوا
هل يقبلُ الشرْعُ بالخنزير تضحية ... يا ليت ما نهبوا منا ولا سلبوا

فهو يرى أعضاء البرلمان يسيئون فى كل شىء ، وما لهم من فضل إلا الراتب الذى يقبضون ، فهم فى تضحيتهم كالخنازير حين يهبون أقل الأشياء . ورسم التوظيف لذلك العهد فهجاه فقال :

بنتَ الحكومة هلْ إليك طريقُ ... لا شك دُونَ وصَالك التمليق
أوَليس مهرَك يا فتاة ثلاثةٌ : ... الكذب والتدليس والتلفيقُ
وكما علمت شمائلى وتفضلى ... خالى الوزيرُ وعمّىَ البطريق